لحج .. مدينة التاريخ والفن الأصيل

• تعتبر محافظة لحج من اهم المحافظات التاريخية والسياحية في يمننا الحبيب نظراً لما تحكيه كتب التاريخ عن هذه المحافظة العريقة بمعالمها الشامخه ليس في عاصمتها الحوطة التليدة التي تألقت بقصورها وفنونها الزاهية في عهود الأئمة والسلاطين لدرجة انها كانت تضاهي مدينة قرطبة في المغرب العربي من خلال ليالي السمر والطرب والزيارات المتواصلة لبساتين الحسيني التي كان الشعراء ورجال الفكر والادب والفن يقصدونها من مختلف مناطق اليمن وينهلون منها ابداعاتهم ويستلهمون منها قصائدهم الشعرية ويستمتعون بطبيعتها الساحرة وبالذات في عهد السلطان عبدالكريم فضل العبدلي واخيه احمد فضل العبدلي «القمندان» صاحب المعلقات الشعرية الرائعة والألحان الجملية والذي كان لإبداعاته الغنائية نكهة خاصة تعلم منها عشرات الفنانين في حياته وبعد رحيله وستظل منهلا للاجيال الحاضرة واللاحقة اذ تضم محافظة لحج اهم المعالم التاريخية

اعداد /محمد الدعيس

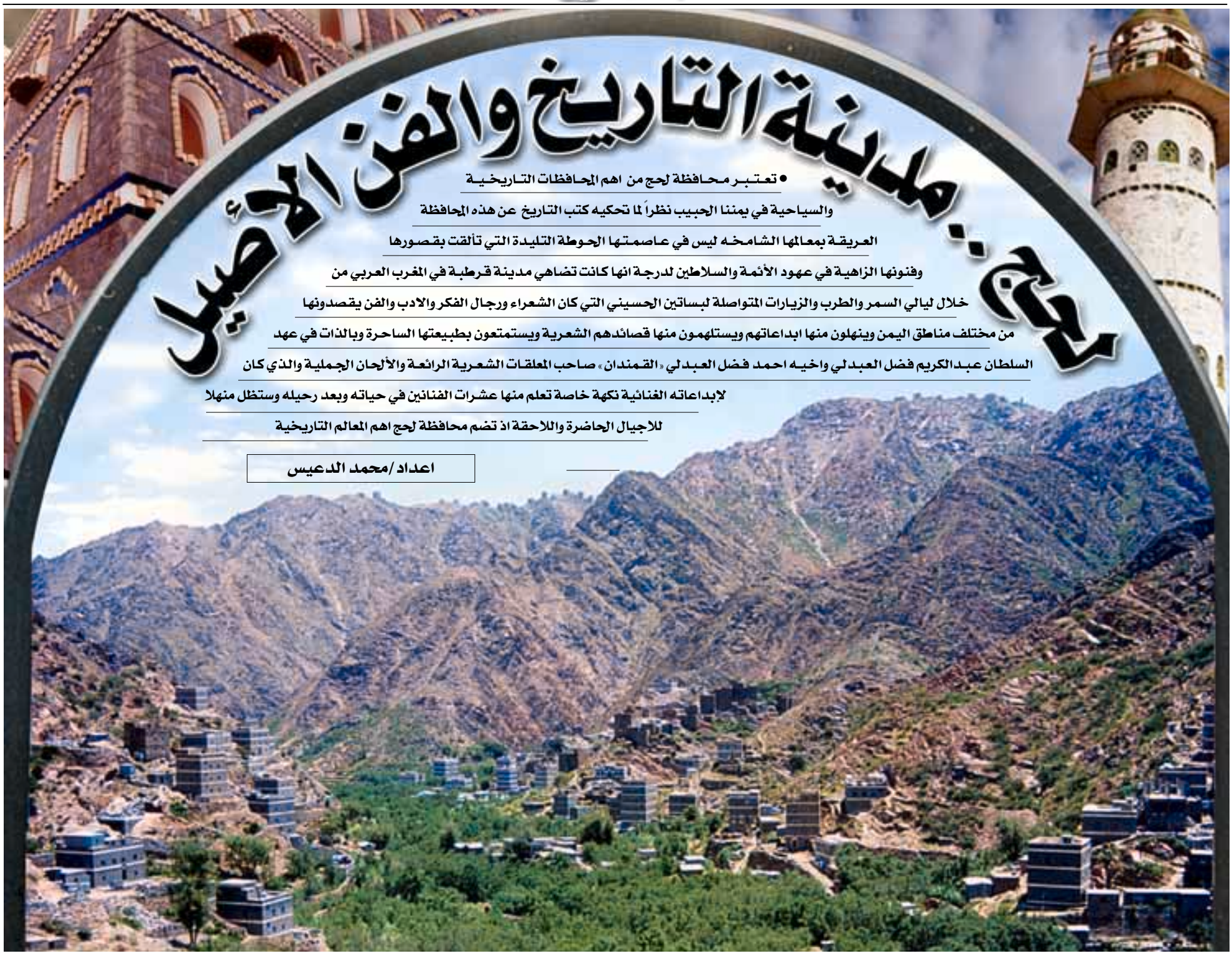

محافظة لحج عبر العصور التاريخية : الحوطة عاصمة لحج

وكانت العاصمة الاولى للحج الرعارع ، وذلك في عصر التبابعة ، والاتراك وانتقلت العاصمة إلى مدينة الحوطة بعد الرعارع على يد الأئمة المتوكل ، والمنصور وفي العام ١٤٤٨هـ صارت العاصمة الفعلية للسلطنة اللحجية بيد السلطان فضل بن علي الأول ، وظلت على هذا الحال حسب اشارة المؤرخين عاصمة للحج ، وعدن حتى ١٨٣٩م بعد أن انسلخت عدن عن سلطنة العبادل ، واصبحت عاصمة للحج فقط حتى يومنا هذا ، وان اختلف وضعها بحسب اختلاف الانظمة المتعاقبة على حكم اليمن ، وللمزيد من المعلومات عن الحوطة ، وآثارها فإلى الاستطلاع التالي :

تبعد مدينة الحوطة عن محافظة عدن عشرين ميلاً تقريبا تاسر تأملات الزائر في مشاهد المكان القديمة التي مازالت ترسم اللحظات التاريخية في منازلها الطينية ، وحوانيتها المنتشرة على طول السوق الذي لازالت ملامحه تتشكل في صمت «اللبن» و«هرج» الازدحام الممتد على طول اليوم .. رائحة الكادي وبسمة الفل تشغل الحيز الاكبر في المكان فيما تظل الحياة حافلة بالجديد القديم في سوق المدينة الذي يجمع كل شيء لكل الناس ، ويحافظ على كل شيء فيه إلا تعاقب الاجيال عليه هو الذي يتغير .. وحواري الحوطة الخمس عشرة ، وقراها الثمان والعشرين .. تاوي «٩٧٣١٢» نسمة هذه القرى عاشت الكثير من الصراعات التاريخية ، والاحداث الساخنة إبتداء من عصر التبابعة عندما كانت عاصمة لحج هي الرعارع ، ومروراً بالدولة الرسولية وبني زياد ، والاتراك وبعدهم الأئمة ، ثم السلطنة اللحجية حتى الستينات من القرن العشرين إثر قيام الثورة المباركة ولعل ما قبل تولي السلطان فضل بن علي زمام الحكم في مدينة الحوطة هي المرحلة الاكثر سخونة في تاريخ المدينة وحاراتها التي من اقدمها «دار عبدالله ، ودار حمادي » التي كان الأئمة يديرون فيها حكم لحج .. وكان حينها السلطان فضل بن علي شيخاً يتبع حكم الأئمة «المتوكل ، والمنصور» وبعد ان ثار عليهم الاخير بدواعي ان عامل الامام صار اكثر فسادا ، ووجب قتله ، هذا ماحدث في عام ١١٤٤هـ ، وقتل بالفعل عامل الامام في هذا التاريخ غدراً عندما علم الامام المنصور بالواقعة أعد الجيوش للنيل من العبادل بزعامة فضل بن علي لكن بمجرد سماعه بالحملة بادر للاستسلام وتسليم مدينة الحوطة للامام المنصور بعد سبعة اشهر من الاستيلاء ليفرض على العبادل تسليم عشرة الاف ريال من خراج لحج او الحوطة لحج ، هو واحد حسب ما اجمع عليه المؤرخون حيث كان يطلق على مدينة الحوطة لحج ، حتى صارت لحج هي تسمية الحاضر لدى ابناء المديريات الاخرى يطلقونها على ابناء الحوطة .

وعودة إلى تاريخ الأئمة .. فقد شعر فضل بن علي العبدلي بالهزيمة .. فاستغل فصل الصيف من عام ١١٤٥هـ حيث لايستطيع جنود الأئمة بالجلوس في مدينة الحوطة ، وذلك لشدة حرها في هذا الفصل ، والجفاف الذي يسود مناطقها الزراعية .. فلجأ الشيخ فضل بن علي إلى السلطان سيف بن قحطان اليافعي سلطان يافع ووعده بأن تكون لحج «الحوطة» تحت طاعته ، ولم يخذله اليافعي حينها ، وبالرغم من عدم تمكنهم من السيطرة على مدينة الحوطة حينها ، إلا ان المحاولة تكررت مرة اخرى في نفس العام ، واستولى سلطان يافع على المدينة بعد ان حاصر جنود الامامة في الحصن «بدار عبدالله» شرقي مدينة الحوطة .. وكانت النتيجة الحتمية لذلك الصراع هو انتقال لحج «الحوطة» من المشيخة الخاضعة للائمة إلى مشيخة خاضعة لسلطان يافع ... ودفع جزء من خراجها لهذا السلطان .. وبعد ثلاث سنوات من الصراع نقض الشيخ فضل بن علي الاتفاق الذي تم بينه وبين سلطان يافع بتسليم جزء من الخراج ، ويذكر هنا وول بلافير في كتابه تاريخ العربية السعيدة ان فضل بن علي بعد رفضه دفع الخراج لسلطان يافع اعلن نفسه سلطانا على لحج ، وبذلك انتقلت لحج وهي قرى الحوطة من المشيخة إلى السلطنة في عام ١١٤٨هـ واتخذ السلطان فضل بن علي آنذاك الحوطة عاصمة فعلية لحكمه ، في لحج وعدن ، ويشير المؤرخون إلى ان اول من اتخذ الحوطة عاصمة للحج هو الامام المتوكل ، وبعده الامام المنصور .. مع العلم ان قرية الرعارع الاثرية كانت هي العاصمة الفعلية للحج قبل الحوطة اى في تاريخ التبابعة ، والاتراك من بعدهم .

سور الحوطة

لم توجد آثار حية لذلك التاريخ في مدينة الحوطة ، الذي ذكره بعض المؤرخين والتي من ابرزها .. هو سور دار عبدالله ، ودار حمادي ، وذكر احد المسنين انهم عثروا قبل خمس سنوات على آثار لسور دار عبدالله عندما كانوا يؤسسون لبناء احد المنازل المتاخم للدار الذي كان في دار عبدالله قبل مئات السنين .

كما ذكر ايضا ان مدينة الحوطة كان يحيط بها سور من اللبن ، وان هذا السور كان له باب لمدخل إلى المدينة يقع بمدخل المدينة الآن – بالقرب من أدارة أمن المحافظة ، وكلية الزراعة لكن احدا لم يذكر تاريخ هذا السور ، وفي عهد من تم بناؤه غير ان التأكيدات ترجع بناءه إلى عهد السلاطين دون تحديد السلطان الذي قام ببنائه ، وبعود سبب اختفائه لعامل الزمن لاسيما ، وانه من اللبن بالاضافة إلى توسيع المدينة منذ بداية القرن العشرين .. الاخ/مصلح القباطي – مدير عام مكتب هيئة الاثار في المحافظة اكد ان المدينة كانت مسورة لكنه لم يعثر على مخطوطة تؤكد إلى عهد من يعود سور المدينة .

اما الآثار التي ماتزال موجودة حتى الآن في دار عبدالله هي المحداة ، ولايزال العمل فيها جارياً ، ولايعرف متى بدأت هذه المحداة غير أن العاملين فيها يقولون بانهم وجدوا انفسهم فيها بالتوارث ، وهذا الشيء الذي مايزال العمل متوارثاً فيه .

آثار أخرى ماتزال

ولعل زيارة الكاتب امين الريحاني إلى مدينة الحوطة في عهد السلطان عبدالكريم فضل في اوائل القرن العشرين خير شاهد على التطور الذي شهدته مدينة الحوطة خلال تلك الفترة .. حيث يقول « انك ترى اشياء في الشرق ، والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور الحوطة ويمضي واصفا القصر الحجري ان ردهة الاستقبال في الطابق الاول رحبة ، وانيقة جليلة يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ كانه من كنيسة مسيحية ، وتلطفه السجف البيضاء المحترمة كانها من قصر إنجليزي ، في القاعة من الدور الثاني مجلسان أفرنجيا ، وعربيا ، فرش الاول عربي الشكل إلا انه من صناعة الهند تحتل زاوية منه آلة الفوتوغرافي وفرش الثاني دواوين عربية تقطعها المساند ، وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة ..

ان محاسن لحج « الحوطة» ومستغرباتها عديدة واكثرها في قصور الامراء ، والبساتين وهذه القصور التي مازالت موجودة هي القصر الحجر وقصر الروضة وقصر الشكر وكلها بنيت في اول القرن العشرين على يد السلطان عبدالكريم فضل بن علي الثاني ، وقصر الروضة الآن هو مقر كلية الزراعة بجانب الاستاد الرياضي الذي يتم العمل فيه حاليا : اما قصر الشكر فهو على ساحل صيرة في عدن ويشغله المتحف الوطني ، والقصر الحجري في وسط مدينة الحوطة ، وهو الذي وصفه الكاتب امين الريحاني كما أن هذا الاخير كان له مدخل ، ودار كان لجنود السلطان بالاضافة إلى حديقة امامه ..فيها من اندر الطيور ، والزهور ونافورة للماء .. توضحها الصورة الآن بشكل متهالك ويقول الاخ القباطي مدير عام الاثار ، ان المهندسين الذين صمموا بناء هذه القصور من ايطاليا والعمال من الهند ، والاخشاب والنوافذ والابواب من الهند ، واما الاحجار فهي من عدن ، وهندسة القصر جدا جملية بحيث ان المهندسين راعوا في تصميمه حرارة الجو فحرصوا على تهوية القصر بكامله بشكل بديع .

يشغل القصر حاليا مكتب الاثار واتحاد الادباء والكتاب فرع لحج، فرع البنك المركزي اليمني ومكتب وكالة الانباء سبأ ، وإذاعة لحج وبمحاذاة القصر قصر آخر بنفس النمط ، والبناء لكنه لايتبع السلطنة وكانت القصور هي التي تميز الحوطة في تلك الفترة لان منازلها آنذاك كلها من الطين واللبن .

كما ان مسجد الجامع او المسجد الكبير من آثار تلك الفترة وادوات البناء المستخدمة في القصور هي ذاتها المستخدمة في ذلك المسجد الذي يعد من اكبر مساجد الحوطة ، حيث اعاد ترميمه نفس إلسلطان الذي بنى القصور في الحوطة ، واذا لم ينتبه لهذا المسجد وتؤخذ الاحتياطات اللازمة لاعادة ترميمه فان التشقق سيطال كافة أركانه .

بساتين الحوطة «الحسيني»

مدينة الحوطة تتوسط ايضا الكثير من البساتين الزراعية ، والتي من اشهرها بساتين الحسيني التي تاخذ اكبر مساحة حيث تحوي ٦٠٠ فدان ، وتمتد ثلاثة كيلو مترات بشكل مستطيل ثلاثي الاضلاع ، وتبعد عن مدينة ، خمسة كيلو مترات ، بالاضافة إلى ان الاراضي الصالحة للزراعة في قرى الحوطة «٢٨٠٠٠» فدان .. معظمها الآن لم تزرع لشحة المياة ، وقلة السيول المتدفقة إلى أراضي وادي تبن والتي يعيد البعض سبب ذلك إلى بناء الحواجز المائية في المرتفعات ، والتي لعبت دورا رئيسيا في تقليص كمية السيول المتدفقة إلى الوادي ، كما ان الزراعة في لحج تتكيف اكثر في فصل الشتاء ، لان اعتدال الجو في هذا الفصل له الدور الاكبر في زيادة الانتاجية الزراعية بخلاف الصيف الذي يكون موسما لاستقبال السيول وتوزيعها على الاراضي .

سكة حديد قطار لحج

في العام ١٩٢٣م وتحديدا في عهد عبدالكريم فضل بدأ فيها القطار يسير من حي المعلا في مدينة عدن حتى قرية الحذار إحدى قرى مدينة الحوطة ، وكان له اربع محطات حسب ذكر المؤرخين الاولى في المعلا والثانية في الشيخ عثمان ، والثالثة في الحوطة ، والرابعة في قرية الحذار ويذكر كتاب العبادل ان امين الريحاني الرحالة العربي المعروف ركب القطار من المعلا إلى الحوطة اثناء زيارته لها ، ووصفه قائلا : انه قطار عسكري مؤلف من مركبة واحدة للركاب مقسمة إلى مقصورتين درجة اولى ، ودرجة ثانية وخمس مركبات لنقل الماشية وركاب الدرجة الثالثة ، والسلع وقاطرته قديمة قدم اكتشاف قوة البخار ويعود السبب إلى ايقافه في العام ١٩٢٨م إلى سبب ضيق مجال نشاطه بحيث كانت مصروفاته اعظم من وارداته ويقال ان خسارته في السنة المالية ١٩٢٧م بلغت اضعاف خسارته في السنة المالية الاولى ، وذلك بسبب مرض الطاعون في اليمن .

كانت المحاولة الاولى مد سكة حديد من عدن إلى لحج ١٩٠٧م لاحمد فضل العبدلي سادس سلطان من لحج ، وكان الهدف من مده هو نقل الجنود ، والمعدات العسكرية اثناء الحرب .

أقدم سكان الحوطة

ويتحدث القمندان عن هذه الفترة أن سكان الحوطة آنذاك لايتجاوزون عشرة الاف نسمة بينهم صوماليون ، وحجريون وحبش وهنود ، ويقول ايضا أن اقدم سكان الحوطة هم عائلة المساوى ، وابرزهم السيد عمر بن عبدالله بن حسين المساوى .

ويقول القمندان ايضا : ان العبادل سلاطين لحج ليسوا من اصل الحوطة ولكنهم من قبيلة «كلد» اكبر قبائل يافع السفلى ، وسكان الحوطة الآن ليسوا كلهم من اصل الحوطة بل يوجد كثير من الحجريين الذين كانوا يقومون بخدمة سلاطين لحج ، ويقال ان اصلهم من الحبشة كما يوجد الكثير من الاخدام توافدوا إلى لحج ، كما يوجد الكثير ايضا من مناطق الشطر الشمالي السابق نزحوا اليها قبل قيام الثورة ، وعاشوا فيها واصبح لهم أطيان يعيشون عليها ، وظلوا مقطوعين عن اهاليهم ، وبعد الوحدة التقت الكثير من الاسر باصولها في المناطق الشمالية ، وصار بعد الوحدة كل شيئ ممكناً ، وصارت الحوطة عاصمة للحج ومديرية من ضمن مديرياتها الخمس عشرة .. ونالت حظها من المشاريع بعد ان ظلت محرومة طيلة فترة ماقبل التسعينيات من القرن الماضي .. والزراعة هي الاعتماد الأساس لسكان مدينة الحوطة .

الإنجازات الوحدوية تتحدث عن نفسها

عانت محافظة لحج من القهر والحرمان في عهد الأئمة والاستعمار مثلها مثل بقية محافظات اليمن ومع قيام الثورة المجيدة انتفضت محافظة لحج وانطلق ابناؤها من جبال ردفان والعوالق والضالع ليدافعوا عن الثورة والجمهورية ويدكوا معاقل الاستعمار البريطاني الغازي بشجاعة واقدام حاملين رؤوسهم على كفوفهم لايخشون الموت ولايهابون الردى .. وبعد نجاح الثورة اليمنية سبتمبر واكتوبر بقي أن يتم الاهتمام بهذه المحافظة الباسلة تكريما لشهدائها الميامين ولكن الحال ظل على ماهو عليه محرومة من ابسط المشاريع الخدمية والضرورية بما في ذلك الطرقات والكهرباء ومشاريع المياه حتى جاءت الوحدة اليمنية المباركة عام ١٩٩٠م فكانت فاتحة خير وبركة تجلت من خلالها المشاريع التنموية والاهم من ذلك شق الطرقات الفرعية بين المديريات والمناطق لدرجة انه لم تبق قرية او عزلة الا وصلتها الطرقات ويمكننا أن نقيم عرضاً لأهم المشاريع التي تم إنجازها منذ قيام الجمهورية اليمنية في ٢٢ مايو ١٩٩٠م

قطاع الطرقات

تم إنجاز عشرات الطرقات التي ربطت عاصمة المحافظة ببقية المديريات ومنها طريق الملاح الراحة بتكلفة اجمالية (٢٧) مليون ريال ثم طريق الكعبين العدني بتكلفة (٥) ملايين ريال ومشروع رصف شوارع الحوطة المرحلة الأولى بتكلفة (١٢٠) الف دولار وطرقات عديدة في بقية المديريات منها طريق الشعيب الحوطة

قطاع الاتصالات

تم إنجاز سنترال الحبيلين مديرية ردفان بتكلفة اجمالية (٤٠) مليون ريال وسنترال طور الباحة بتكلفة قدرها(٤٥) مليون ريال وسنترال الحوطة (١٥٠) مليون ريال وسنترال صبر بتكلفة (٧٥) مليون ريال وبناء مكتب البريد (٨) ملايين ريال كما تم إنجاز سنترالات في بقية المديريات منها يافع ولبعوس وحبيل جبر والمجحفة والعند والمسيمير وغيرها من المناطق والعزل.

قطاع التربية والتعليم

نال قطاع التعليم اهتماماً خاصاً في دولة الوحدة حيث تم بناء مدارس في مديرية طور الباحة بتكلفة (٥٠) مليون ريال وثانوية الحوطة في عاصمة المحافظة (٥٠)مليون ريال ومدرسة الشهيد بدر للتعليم الاساسي ومدرسة الايمان في منطقة مكيرين ومدرسة في منطقة الظاهر حبيل جبر ومدرسة مكونه من عشرين فصلاً في يافع ومدرسة الجبانه للبنات وثانوية في مديرية يهر ومدرسة اسماء للبنات بلبعوس ومدرسة الزهراء ومدرسة عائشة بمنطقة عشارة واربع مدارس في المتزاورة والمجحفة والجبل والحلايم وقد بلغت التكلفة الاجمالية لجميع المدارس المذكورة حوالي (٢٠٠) مليون ريال

قطاع المياه

تم إنجاز عشرة مشاريع مياه في مديرية ردفان بتكلفة اجمالية (١٢) مليون ريال ومشروع مياه المجحفة الحبيل بـ(٧) ملايين ريال مشروع مياه الزيادي نوبة الشطيف (٦) ملايين ريال مشروع مياه المسيمير وغيرها من مشاريع مياه الشرب

قطاع الكهرباء

عانت مناطق وقرى محافظة لحج من غياب مشاريع الكهرباء حتى قيام الجمهورية اليمنية باستثناء عاصمة المحافظة.. وقد جعلت حكومة الوحدة الرشيدة مشكلة الكهرباء في مقدمة اهتمامها حيث تم إنجاز اكثر من عشرة مشاريع أهمها مشروع كهرباء المسيمير ومشروع الربط الكهربائي في منطقة العند ومشروع كهرباء جول مدرم ومشروع كهرباء القبيطة ومشروع ظمران الكعبين وقد بلغت تكلفة مشاريع الكهرباء حوالي (٥٤٦) مليون ريال مع العلم أن بعض قرى ردفان ما تزال تعاني من نقص الكهرباء

قطاع الزراعة والصحة

تم إنجاز سد عمق الحضارم بتكلفة (١٢) مليون ريال وسد الصلوله لبعوس بمقدار(٩٤) مليون ريال ومستوصف منطقة الرياشي بتكلفة (٥٧) مليون ريال ثم الملعب الرياضي بالحوطة والذي تم افتتاحه العام الماضي بتكلفة أجمالية (٢٢) مليون ريال وهناك مشاريع في طريقها وقد اشرفت على الانتهاء.

المشاريع التنموية تعيد لها حيويتها وبريقها

■ بوابة القصر

■ للقصر الحجري في الحوطة